**محاضرة 6**

**- عبــادة البـشـر :**

#   **أ - عبـادة الأسـلاف:**

#  حظي بعض الأفراد خاصة الأموات منهم بنظرة متميزة من الأحياء، كما تدل علـيه المصادر المادية و الأدبية التي سجّلت جملة من ممارسات المغاربة القدماء و التي يكشف استقراؤها أن مفهوم العبادة هنا هو نوع من التقدير والاحترام . فعملية الدفن في حد ذاتها و ما يرتبط بها من شعائر تعتبر تقديرا للأموات بحمايتـهم من كل اعتداء (1).

 كما اتخذوا من المدافن البدائية أماكن للقـداسة(2)، و يصب ما ذكـره(هيرودوت) عن بعض ممارسات النسامون في دعم الفكرة ، فقـد كانوا يقسمون برجال منهم عرفوا بكونهم الأكثر عـدالة وهم الأفضل ( أخيار ) و ذلك بملامسة قبورهم ، كما كانوا يقصدون قبور أسلافهم فينامون فوقها بعد أن يكونوا قد تقدّموا بالدعاء ، و يتمثـّلون حتى يـروا أنفسهم كأنهم في حلم ، و كل حلم يتراءى لهـم يعملون به فيحتكمون إليه(3) ، و يبدو أن هذا الطقس مارسته قبائل أخرى منها سكان واحة أوجلة الذين كانوا يرتادون قبور موتاهم و يعتبرونها أماكن للتنبؤ بالمستقبل(4) و يعتبر بعـض المؤرخين مثل ( ج. كابيتو) Caputo. G و (ج.كامبس) بأن قبور المنطقة الصحراوية المنتـشرة من موريطانيا إلى فزان و التي تعود إلى فترة فجر التاريخ تدعم رواية هيرودوت ، استنادا إلى احتواء تلك القبور على معبد صغير ( Une Chapelle) ، فهي قبر و معبد في نفس الوقت ، و كذلك الشأن بالنسبة لقبور التيميلوس ذات القمم(5)، ( الشكل 6 ،أ ،ص. 61 ) فقد كانت بدورها معابد تتـم فيها ممارسة طقس الـرؤيا، فالقمة تسمح بالاقتـراب من الميت دون اتصال مادي مبـاشر بعظامه و يدعم هذا أن التيميلوس بهذه المواصفات تنتـشر في والصحراء موطن النسامون الرحل(6).

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(1) 436 ; - Camps ( G. ) , Op - Cit., P.

 لكن بعض الباحثين مثل أ . توينبي يرجعون تخلص إنسان نياندارتال من موتاه بشكل طقوسي إلى وعي اجتماعي أكثر منه ديني . للمزيد انظر : توينبي أرنولد ،تاريخ البشرية ،ج1، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت، 1981، ص. 39 .

(2) الناضوري رشيد ، المدخل في التطور التاريخي ... ، ص . 37 ، و كذلك ج. كامبس الذي يذهب إلى أن القبور الميجاليتية بالشرق الجزائري

 و العائدة إلى فجر التاريخ تمثّل كل منها موقع اتصال مقدس . غانم محمد الصغير ، " المقبرة الميجاليتية ببونوارة ( الشرق الجزائري ) ، مجلة العلوم الإنسانية ، العدد 8 ، جامعة قسنطينة ، 1997 ، ص . 166 .

(3) – Herodote, IV, 172

(4) – Pomponius Mela , Géographie , I . 6 , Trad , Baudet ( L . ) , ed , Panckoucke, Paris, 1843 . (5) ينتشرهذا النوع من القبور في نقرين جنوب النمامشة ، و في تاووز برابر و بوية بتافيلالت ، و في بئر أم قارن و ليبني في موريطانيا . للمزيد

 انظر : - Vernet ( R. ) et Boua Oul Mohamed Naffé , Dictionnaire Archéologique de la Mauri-

 -tanie , C. R. I. A. A, Université de Nouakchott , 2003 , P. 43 .

(6) . - Camps ( G.) , Massinissa… , P. 20

 هذا و من البقايا التي يعتبرها الكثير من الدارسين شـاهدا على عبادة الأسلاف تلك الأعمدة والأصنام التي توجد في الصحراء الوسطى ، منها تلك التي عـثر عليها في تابلبالة(1)، وعليها تبـرز ملامح وجوه بشرية و على بعضها آثار للمغرة أو الفحم، و قد وجدت قائمة على جوانب قبر من نوع التيميلوس ( الشكل6، ب ، ص. 61) ، و أخرى عثـر عليها في موقع تين خديجـة بالطاسيلي و هي مجموعة من الأعمدة الحجـرية المتجاورة ( الشكل6، ج ،ص.61 ) و قد نظـر إليها بعض الدارسين على أنها تـمثّل أفرادا كما يمكن أنها وضـعت قريبا من جثث أموات و هو ما يدل على عبادة الأسلاف(2).

إلى جانب هذا فقد عثر على تمثال حجري معزول لرأس بشرية في موقع أوان سيدي(3)، و هو ينتمي إلى نفس عائلة الأصنام السالفة الذكر ، و يبدو أنها جميعها محلية الصنع لتوافر الحجر الكلسي بالمنطقة

التي وجدت فيها ، كما أنها زمنيا تعود للعصر النيوليتي ، و ما يستحق الذكر أن الطوارق المعاصرين ينفرون من هذه الأصنام لأنهم يعتبرونها من بقايا العهد الوثني(4) .

 بناء ما سبق يعتبر بعض الدارسين قبور البازيناس و الشوشة ذات الأصل المحلي و التي تغطي أغلب بلاد المغرب الشمالية تقريبا هي الشكل البسيط الذي تطورت منه الأضرحة الملكية الضخمة(5).

 و نجد عند (البكري) (ت.315هـ ) في القرن الحادي عشر بعد الميلاد إشارة إلى هذه الممارسة عند قبيلة غمارة في شمال المغرب الأقصى الذين كان منهم قوم يعرفون ب "الرقادة " في الأوديـة دونحراك ثم يوضح : " ...فإذا أصبح في اليوم الثاني أتى بعجايب مما يكون في ذلك العام من خصب أو جدب أو غير ذلك ...ٍ[كذا ]" (6)،

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

 (1) عثر عليها القبطان توشار ( Touchard) في 1905 في تابلبالة بالطاسيلي ناجر و بعضها موجود حاليا بمتحف باردو بالجزائر .

- L’Hote ( H. ), «  Nouvelles statuettes en pierre polie découvertes au sahara central et contrib-

ution aux cultes anciens des populations sahariennes » , actes du 2eme cogrés panafricain…,

P. 725 .

(2)- Hachid ( M. ), Op – Cit., PP. 150 – 152 .

(3) اكتشفها القبطان الفرنسي ليزور ( Lesourd ) سنة 1936 بالقرب من آبار أوان سيدي بمنطقة الأداين في الصحراء الشرقية للجزائر

 و هو صنم من الكلس ، جيد الصنع ، طوله 31 سم مثّلت الرأس منها 11 سم و الوجه منحوت على واجهتي العمود .

- L’Hote ( H. ), Op – Cit., P. 726 .

(4)- Ibid. , PP. 726 – 728

( 5)– Rachet Marguerite, Rome et les Berbères( un problème militaire d’Auguste à Dioclétien)

 Latomus, Bruxelles,1970, P. 21.

(6) Abou- Obeid El- Bekri , Description de L’Afrique Septentrionale, traduit par Mac Guckin-

 De Slane , Librairie D’Amérique et d’Orient, Paris , 1965 , P. 305 .

وتأخذ الظاهرة شكلا من تجلياتها في العصر الحديث حيث تذهب نساء الطوارق في مناطق عديدة من الصحراء نهارا إلى قبور قديمة و ينمن عليها لمعرفة أخبار رجالهن الغائبين(1).

**ب : عبــادة المـلـوك:**

 لقد حظي بعض الملوك بمكانة متميزة عند المغاربة القدماء ، سواء من خلال النقوش والعمارة الجنائزية أو كتابات المؤرخين كما عرف هذا الموضوع تباين آراء المؤرخين حوله .

 تعود الوثائق الأولى حول عبادة الملوك إلى القرن 3 ق . م ،حيث عثر في دوقة (Dougga )(2) على نقيشة تعرف بنقيشة دوقة الثـانية(3) بالقرب من الضريح و كانت كتابة النص هي البـونية والليـبية ونصه : " شـيّد سكان دوقـة هذا المعبد للملك ماسينيسا بن الملك غايا بن السوفيت بـن زلالسن و ذلك في السنة العاشرة لحكم الملك مكواس..." ،( الشكل7،أ ، ب، ص.64 ) وقد استند بعض المؤرخين الغربيين(4) على هذا النقش في تأليه النوميـديين( لماسينيسا) ، في حين يشكّك آخرون في ذلك ومنهم (م. فنطر )الذي يرى أن النص لا يؤكد الاعتقاد بتأليه( ماسينيسا )، فهو لا يتضمّن إلا لقبه كملك الذي أشير إليه بالكلمة البـونية ( م ق د ش ) التي تعـني معبدا أو مكانا مقدسا ، و أن هذه اللفظة لا تعـني بالضرورة معبدا، كما أن بناءه تـمّ بعد عشر سنوات من موت (ماسيـنيسا )، فالضريح لم يأخـذ صفة القداسة إلا بعد أن بـدأ السكان بتمجيد روح صـاحبه الميت (5)، و في نفس السياق يتساءل غانم محمد الصغير في حال اعتبار ضريح دوقة معبدا عن غياب

 ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

#  (1) – Basset ( R. ) , Op – Cit., PP. 318 -320. (2) دوقة : مدينة اسمها القديم ت ب ج ج ، كانت إحدى عواصم المملكة النوميدية ، تشتهر بضريحها الأثري ، و لا تزال بقاياها الأثرية موجودة إلى وقتنا الحالي بولاية سليانة بالجمهورية التونسية . غانم محمد الصغير، " نقيشة دوقة الأثرية : دراسة لغوية – تاريخية " ، مجلة العلوم الإنسانية ، العدد 10 ، جامعة قسنطينة ، 1998 ،ص. 103 .

(3) هي نقيشة مزدوجة اللغة ( بونية – ليبية )عثر عليها عمال مصلحة الآثار القديمة في 1904 ، و قد كتب النص على كتلة حجرية بـلغ

 ارتفاعها 0،33 سم و عرضها 0،86 سم و سمكها 0،52 سم ، ووصل عدد الأسطر البونية خمسة و هي في الأعلى ،و كتبت في أعـلاها

 الأسطر الليبية و عددها سبعة ، و توجد النقيشة حتى اليوم بمتحف باردو بتونس العاصمة . نفسـه ، ص ص. 101 . 102 .

(4) انظر للمزيد :  - Gsell (S. ), H. A. A. N., T.6.PP. 130- 131 ;Picard (G.Ch), Les religions…P.17

(5) - Decret ( F. ) et Fantar ( M. ) , Op - Cit. , P. 258 .

المذبح و كل الملحقات التي تتم فيها المراسيم التعبدية سواء كانت شرقية فينيقية أو غربية إغريقية أو رومانية(1).

 كذلك تم العثورفي شرشال على نقيشة(2)، ربما تشير إلى معبد (لمسيبسا )(Micipsa)، وقد يكون إنجازها تم متأخرا بنصف قرن على الأقل من موت ميسيـبسا (3)، و مما جاء في نص الإهداء مترجما إلى العربية ما يلي :

(1) معبد جنائزي للحي بين الأحياء مسيبسا ملك الماسيليين .

(2) الفقيد حامي الوطن و رئيس الأمراء المتسامح .

(3) إليه ( أي مسيبسا ) أهدى يعزم هذا النصب

 التذكاري المغطى برداء ، و كذا الغرفة التي بها جرة جنائزية .

(4) يعزم بن يزغّاسن بن بغات بن ماسينيسا خادم الآلهة . (5) للسيادة الجليلة تكون كمال الشهرة و العظمة .

(9)... كبيرة ... في ... تشتمل على كامل القرى الزراعية المشيّدة بالحجارة و المحاطة بالأشجار .

(10) في أراضي المرعى الغنية بهشيمها ...

(11) أنجزه عريش بن عبدو بن ...(4)

 من غير المستبعد أن يكون مقدم الإهداء هو يعزم بن يزغاسن بن باغات بن (ماسينيسا) ينتمي إلى أسرة العاهل(ماسينيسا) بناء على أن السطر الرابع من النقيشة يذكر تسلسل آبائه حتى(ماسينيسا) رغم بقاء الغموض يحيط شخصية(ماسينيسا) المقصود في النص بين أن يكون العاهل (ماسينيسا ) أم شخصا آخر يحمل نفس الاسم، و كذلك إهداء المعبد إلى (مسيبسا) بن الملك (ماسينيسا) ، ووجود اسم( يزغاسن) والد (يعزم) في نقيشة أخرى عثر عليها بالشرق الجزائري(5) .

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(1) غانم محمد الصغير ، المرجع السابق ، ص. 107 .

(2) تعرف بنقيشة مسيبسا الأثرية عثر عليها في نهاية القرن التاسع عشر بضواحي مدينة شرشال ، و كان الحجر الحامل للنقيشة من المرمر ، و هو عبارة عن لوح مسطّح مستطيل الشكل بلغ طول ضلعه 0،30 سم و عرضه 0،20 سم ، و قد كسرت الزاوية اليسرى السفلى منه مما تسبّب في إتلاف أسطر كتابته منذ السادس و حتى الأخير ، أما كتابته فهي ذات حروف بونيقية جديدة ، في حين كانت لغته بونيقية ، و قد تناولت هذه النقيشة دراسات عديدة كما تجدر الإشارة إلى أن النقيشة توجد حاليا بمتحف اللوفر بباريس . غانم محمد الصغير ، " نقيشة مسيبسا الأثرية (دراسة مقارنة )" مجلة سيرتا ، العدد 4 ، معهد العلوم الاجتماعية جامعة قسنطينة ، 1981 ، ص ص . 8 – 9 .

(3) – Picard ( G. Ch. ), Les religions…, P. 130 .

(4) غانم محمد الصغير ، " نقيشة مسيبسا الأثرية ... " ، ص ص . 13 – 14 .

(5) نفسـه ، ص . 11. للمزيد من المعلومات حول هذا النقش انظر . – Chabot ( J. B. ), Recueil des Inscriptions Libyques , N.1108 .

**أ**

****

**ب**

**- الشكل رقم 7 : أ- صورة لنقيشة دوقة الثانية التي عثر عليها بجوار ضريح دوقة الأثري .**

**- المصدر : أ - - Chabot J - B., recueil des inscriptions Libyques ( planches ) , imprimerie nationale, Paris, 1941, Pl. I, 2.**

 من جهة أخرى يمكننا أن نستنتج من صيغة الإهداء أسباب تعظيم (مسيبسا) فهي تتمثل في أنه ملك الماسيليين و حامي الوطن و رئيس الأمراء المتسامح، و سادت في عهده مظاهر من الازهار من :

" القرى الزراعية المشيّدة بالحجارة و المحاطة بالأشجار... في أراضي المرعى الغنية بهشيمها..." و من جهة أخرى قد تعبّر عبارة " إلى الحي بين الأحياء "بالرغبة في تخليد ذكرى( مسيبسا) و تقديره و هي لا ترقى إلى تأليهه ، في حين من الدارسين من يعزو لها مضمونا دينيا لصالح فكرة تأليه الميت(1) .

 كما تم العثور على عدة نقوش إهدائية باللغة اللاتينية تعود إلى العهد الروماني ، تتضمن تأليه بعض الملوك النوميديين مثل( غلوسة) (Gulussa ) و (هيمبسال)(Hiempsal ) و( يوبا) ( Juba )(2)،كما أشار العديد من الكتاب اللاتينيين إلى حب الموريين و عبادتهم لملوكهم ، فيذكر (بومبونيوس ميلا) في هذا الصدد : " منذ أعمدة هرقل أخذ السكان عاداتنا و لغتنا ... ما عدا البعض منهم احتفظ بلغته القديمة و بآلهته و عبادة أسلافه "(3).

 يتّضح مما سبق تباين آراء المؤرخين حول هذه العبادة و أسبابها ، وخاصة نشأتها المرتبطة بالعاهل (ماسينيسا )، حيث يرى( س.جزيل) أن (مسينيسا) أنشأ هذا التقليد بإعطاء الطابع الإلهي لنفسه لأجل تعزيز سلطته السياسية ، كما فعل البطالمة في مصر، ثم قلّده من جاء بعده من الملوك(4).

 إلا أنه بالاستناد إلى أدلة عديدة يمكـننا استبعاد هذا الطرح ، الذي يبدو أنـه جاء متأثرا بشيوع ظاهرة تأليه الملوك و هم أحياء في ق 3ق . م مثل( فيليب و الإسكندر المقدوني) الذين جعلتهم البطولةمؤهلين للتأليه (5)، فتاريخ بناء ضريح دوقة بعد موت (ماسينيسا) بعشر سنوات يدل على ان عبادتهكانت بعد موته حيث لم يعد إغليدا ، فكيف له ان ينشئ هذا التقليد الذي لم يستفد منه(6)؟

يضـاف إلى هذا أن النقوش التي يتم الاستناد إليها لتقرير إنتشار عبادة الملوك ليست أكيدة ، فقـد وضّح (ج.كامبس) بأن الأمـر يتعلّق قبل الملوك بآلهة ليـبية اتّخـذ الملوك أسماءها مثلما هو الحال

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(1) – Decret ( F.) et Fantar ( M. ), Op – Cit., P. 258 .

(2)- Gsell ( S. ) , H. A. A. N. , T.6 , P.131 ; voir. C.I.L , VII .18752 ,C.I.L , VIII, 8834 , 20627.

(3) – Pomponius Mela, I, 6 ; للمزيد حول نصوص بقية الكتاب اللاتينيين في الموضوع انظر : Tertullien , Apologeticus , 24 ; Minicius Felix ,

Octavius , 21, 9 ;Lactance, Institutions Divines, I, 15, 6.

 (4) - Gsell ( S. ) , H. A. A. N. , T.6 , P.132 . (5) – Camps (G. ), Massinissa…, P. 279 – 280.

(6) – Ibid., P. 298 .

 بالنسبـة ل(يوبا الأول) و ابنه (يوبا الثاني) ، ففي النقـش الذي سبقت الإشارة إليـه( (CIL VIII 20627.) الذي تم فيه تقديم الدعاء إلى الإله يوبا Juba و في نفس الوقت إلى جوبيتر( Jupiter) وإلى ( Dii ingirozglezim) (1).

 يتبيّن مما سبق أن الأسباب الحقيقية للمكانة المتمـيزة للأموات بصفة عـامة و الملوك بصفة خاصة تكمن في تميّـزهم ، فالنسامون كانوا يقسمون بأمواتهم " الأخيار "، كذلك بالنـسبة (لماسيـنيسا) و (مسيبسا) من بعده، فالأول يعتبر قائـدا منتصرا في الحرب، و إغليدا ساهم في تمدين النوميديين مما جعله محبوبا من طرف الماسيل في حياته و بعد موته (2)، أما (مسيـبسا) فيترجم الضريح المقام له حنين النوميديين إلى فترة السلم و الأمن و التطور التي عرفوها خلال عـهده (3)، فضلا عن هذا فالأمم منذ القديم و حتى عصرنا الحالي تعمل على تخليد و تمجيد ذكرى أفراد منها فتعتبرهم أبطالا بما قدّموه لها من خدمات.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

 (1) - Decret ( F. ) et Fantar ( M. ) , Op - Cit. , P. 259 .

(2) جوليان شارل أندري ، المرجع السابق ، ص . 199 .

(3) - Decret ( F. ) et Fantar ( M. ) , Op - Cit. , P. 258 .